لغة – كلام الاستلام: 2026/09/14 القبول: 2026/10/26 النشر: 2026/11/26

الكليات النحوية في كتاب الضروري لابن رشد الحفيد

✍ محمد بن شماني
جامعة أحمد زبانة غليزان.– الجزائر
mohammed.benchemani@uni-relizane.dz

ملخص البحث

نسعى في هذا المقال إلى بيان جهود ابن رشد الحفيد(ت 595ه) النحوية بالرجوع إلى كتابه " الضروري في صناعة كليات النحو" لما لهذا الكتاب من أهمية كبرى في ميدان النحو العربي خصوصا والنحو بدلالته الكلية عموما، مما جعله متفردا عن سائر الكتب والمؤلفات النحوية العربية التي اعتادها القارئ ، سواء أتعلق بطبيعة المنهج الذي توخاه ابن رشد في تقرير مسائل النحو ذات البعد الكلي بدءا من النحو العربي أم ما تعلق بالمصطلحات والتقاسيم والقوانين النحوية التي ضمنها كتابه.

ومما هو جدير بالاهتمام في كتاب الضروري، بالإضافة إلى المنهج والمصطلح والتقاسيم، نظرة ابن رشد الحفيد الكلية والشمولية إلى قضايا النحو ومسائله من حيث هي قضايا لا تقتصر على اللسان العربي؛ بل تتعداه إلى سائر الألسن البشرية باعتبارها كليات نحوية ،أو إن شئنا القول: من حيث هي ثوابت نحوية تتوافر عليها الأنحاء العالمية كلها، وهذا ما يجعلنا نصنف صنيع ابن رشد في هذا الكتاب من قبيل ما يصطلح عليه اليوم في حقل فلسفة اللغة المعاصرة بالنحو الفلسفي أو النحو الصوري(المنطقي) بوصفه البداية العربية الجادة لهذا النوع من البحوث والدراسات اللسانية والنحوية تحديدا في الغرب الإسلامي .

الكلمات المفتاحية: الكليات ، النحو الكلي، ابن رشد ، المنطق.

LOUGKA - KALAM Reçu le: 14/09 / 2026 Accepté le: 26/10 / 2026 Publié le: 26/11 / 2026

Grammatical Universals in the book of " The Necessary in Grammar" of Ibn Rochd El Hafid

✍ BENCHEMANI Mohammed
University of Relizane ahmed zabana .Algeria
.benchemani@uni-relizane.dz

ABSTRACT:

We will try trough this paper to show grammatical efforts of Ibn Rochd El Hafid (D 595H) by reference to his book entitled " The Necessary in Grammar " given the importance of this book in Arabic grammar specifically and grammar in general, that made him unique as opposed to other grammatical books and works which readers are accustomed to, whether with regard to the nature of method used by Ibn Rochd in deciding about grammar questions of universal dimension on the basis of Arabic grammar or with regard to grammatical terms, characteristics and rules included in this book .

The interesting thing in "*the Necessary*" besides the method, term and characteristics is the holistic view of Ibn Rochd to grammatical cases surpassing the Arabic language to all human languages as being grammar universals or in other words grammatical fundamentals existing all over the world, this what makes us consider the product of Ibn Rochd in this book as philosophical grammar (Logic grammar) in terms of modern philosophy of language, being the serious beginning of this kind of Arabic grammatical and linguistic researches especially in Islamic west side.

KEYWORDS: Universals, universal grammar, Ibn Rochd, Logic

مقدمة:

اعتنى علماء اللغة العربية القدماء بدراسة مختلف الظواهر اللسانية المتعلقة باللغة العربية تارة من طريق الاستقراء وتارة أخرى من طريق الاستنباط، أو هما معا كلما دعت إلى ذلك ضرورة، وبغض النظر عن كون البحوث اللسانية العربية القديمة استقرائية أو استنباطية فإنها كلها تطرقت إلى دراسة العديد من القضايا اللسانية العربية ذات البعد الكلي، أو العالمي الذي يوحي باشتراك جميع الألسن البشرية في خواص محددة نلفيها حاضرة في أي لسان بشري عبر مر التاريخ.

صحيح أن المبدأ الفكري في البحث اللساني العربي لم يكن في القديم يتحمل على عاتقه مهمة الوصول إلى صياغة قوانين لسانية كلية صالحة لأن تنطبق على سائر اللغات أو الألسن البشرية ، إلا أن هذا لم يمنع من كشفهم عن هذا البعد الكلي الذي يتمتع به اللساني العربي ،وهذا في جانب يكون دليلا واضحا على أن الكليات اللسانية العربية التي توصل إليها علماء العربية القدامى هي مبدأ قوي للإسهام في صياغة القوانين اللسانية العامة بالمعنى المعاصر؛ وعليه لا جرم أن يدرس علماؤنا العديد من الظواهر اللسانية التي نجد لها صدى كبيرا اليوم في اللسانيات العامة قصدا لا عرضا.

يفضي البحث في الكليات اللغوية العربية إلى الوقوف على جملة من الإشكالات العلمية ذات صلة ، من قبيل علاقة الكليات اللغوية العربية بالمنطق اليوناني، على اعتبار أن الكليات اللغوية بالمعنى العام ما هي إلا صورة من صور التفكير المنطقي أو العقلاني الذي نلفيه عند النوع الإنساني خاصة، كما يفضي هذا إلى مراعاة الحدود الفاصلة بين البنيات العقلية أو الفكرية التي لا تختلط باللغة، والبنيات اللسانية العربية خاصة، ناهيك عن حدود هذه البنيات اللسانية العربية في علاقتها بالحدود اللسانية بالمعنى الذي تتبناه اللسانيات الغربية المعاصرة، فضلا عن طرق علاقة الكليات اللغوية العربية بمفهوم الفطرة اللغوية وعلاقة ذلك كله بمفهوم السجية العربية .

إن الحديث عن مفهوم لساني ذي طابع كلي في التراث اللساني العربي القديم يتطلب إحاطة واسعة بهذا التراث ،مما يوجب النظر في الجانب الفلسفي باعتباره من جملة الروافد المعرفية التي لا مناص منها في فهم تراثنا العلمي عموما ؛لأننا قد لا نلفي في البعد اللغوي ما نحن بصدد البحث عنه في صورة تامة ، اللهم ما كان منها مبعثرا في طيات بعض المظان التي اتسمت بالسعة والبسط في الشرح والتحليل والتعليل، أو ما كان منها ينتحي منحى فلسفيا في عرضه للمادة النحوية على غرار كتاب الخصائص لابن جني(392هـ)،(ابن جني ، 2007) أو بعض تلك الإشارات التي نطالعها في كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي(337هـ) ، (الزجاجي ، 1996) أو كتاب الخصائص للقرافي (682هـ)، (القرافي، 2013) ؛لأجل ذلك كانت قضية الكليات النحوية خاصة ملزمة لنا بأن نلج عالم الفلسفة والمنطق العربيين.

إننا نصادف في المؤلفات الفلسفية العربية شيئا معتبرا ومعولا عليه في بحث قضية الكليات اللسانية عامة والنحوية خاصة، والعلة في ذلك كامنة في غلبة النزعة الفلسفية على مؤلفيها كما هو الأمر مع الفارابي (339هـ)، وابن سينا (427هـ) في المشرق العربي، و الأعلم الشنتمري الأندلسي (476 هـ) في كتابه المخترع في إذاعة سرائر النحو، وابن سيد البطليوسي الأندلسي (521هـ) وابن رشد الحفيد القرطبي (595هـ)في المغرب العربي.

ولمّا كان ابن رشد الحفيد فيلسوفا يتمتع بالنظرة الكلية إلى مختلف الأشياء، كانت هذه النظرة هي الموجهة لجميع مؤلفاته ،و لكتابه النحوي الفريد" الضروري في صناعة النحو" (ابن رشد ، 2010) لذا عند اطلاعنا عليه نلفيه كتابا مختلفا في نظمه ومنهجه، ومختلفا في تقاسيمه للمواد النحوية، فضلا عن اختلافه عما هو سائد ومعروف في كتب النحو العربي من حيث هو كتاب نحوي ذو نظرة كلية مبدأ ومنتهى، ولذلك مسوغ يتمثل في كون ابن رشد فيلسوفا مشائيا بامتياز.

إنّ الوقوف على هذه السمات الكلية التي تميزت بها نظرة ابن رشد للنحو العربي ومحاولة إعطائها بعدا شموليا وكونيا ينسحب على العديد من الألسن والأنحاء العالمية -باصطلاح اللسانيات المعاصرة - لا يتم إلا برصد طبيعة المنهج المتوخى في تقرير مسائل النحو لديه، وكذلك التقاسيم التي اتبعها ابن رشد في عرض المادة النحوية؛ وعليه لابد من الوقوف على المنهج والتقاسيم في كتاب الضروري على النحو الآتي:

لقد تميز منهج ابن رشد في كتابه الضروري بالاختلاف التام عما ألفناه في كتب النحو العربي، سواء التعليمية منها أم الموجهة للعلماء، مما يجعلنا نجزم بأن هذا المنهج الذي سار عليه ابن رشد في دراسة المسائل النحوية هو طريق من طرق الفلاسفة والمناطقة التي اعتمدوها في عرضهم للمسائل والقضايا الفلسفية والمنطقية؛ إذ يُتخذ في ذلك لسان واحد أو نحو لسان واحد باعتباره أنموذجا ، ومنه توضع وتصاغ الكليات اللغوية أو النحوية التي تصير من بعد قوانين، بل وثوابت كونية تنطبق على الألسن أو الأنحاء البشرية جميعا، وقد بيّن ابن رشد ذلك في سياق حديثه عن النحو من حيث هو صناعة بما يلي: " **فإن الصناعة هي التي تحيط بأموركلية يصل بها الإنسان إلى الغرض المطلوب بتلك الصناعة ، ومعرفة تلك الكليات تكون أتم إذا عرفت بأسبابها .... وإذا تقرر هذا فظاهر هذه الصناعة يعطي الكليات والقوانين بأسبابها التي يقدربها الإنسان أن ينطق بأشكال الألفاظ التي جرت عادة أهل ذلك اللسان أن ينطقوا بها، إما لسان العرب وإما غيره من الألسنة**" (ابن رشد، 2010، ص97. 98) فمعنى هذه الكليات بهذا الوصف هي مجموع " **أقاويل عامة يعرف بها جزئيات كثيرة** "(ابن رشد، 2010،ص 98) وعليه تتجلى فائدة هذه الكليات من حيث هي قوانين وثوابت لسانية ونحوية في المنهج التربوي الذي يراد منه توصيل المعلومة النحوية إلى المبتدئ خاصة، فيتمكن من حصر مسائل النحو ومباحثه.

ابتداء من هذه الرؤية نلفيه يؤكد على طبيعة المنهج الكلي الذي سار عليه في قوله : " **وأما الترتيب الذي سلكنا نحن في هذا الكتاب ، فإننا رأينا أن نقدّم أولا من أمر الألفاظ المفردة ما الاهتمام بمعرفته مساو للاهتمام بمعرفة الإعراب ، بل لعله أكبر، وهي كالأمور الضرورية في كل مخاطبة، وهو مشترك بجميع الألسنة** " (ابن رشد، 2010، ص 103) فهذا المشترك هو الأصل والمبدأ الذي منه تُعرف الجزئيات التي تجعل من كل لسان أو نحو خاص متفردا عن غيره من الألسنة والأنحاء الأخرى، كما أن هذا المشترك هو الذي يُصيّر الألسنة والأنحاء كلها تقع في مرتبة واحدة وفي مستوى مشترك واحد هو الكليات اللسانية والنحوية.

إن هذه النظرة الكلية هي في حقيقة الأمر نابعة من تفكير فلسفي خاص، أقل ما يقال عنه إنه تفكير فلسفي شمولي ينطلق من مبدإ كلي ليصل إلى الأمور والقوانين الجزئية مع العلم بأن المقدم هنا هو المبدأ الكلي ؛ فالمقصود لدى الفلاسفة هو الوصول إلى الأمر الكلي المشترك، لكأنهم ينشدون بلوغ الغاية القصوى المتمثلة في وضع وصياغة نظرية نحوية كلية لا تستثني نحوا من أنحاء اللغات المنتشرة في العالم، ولقد اتخذت بعض التصورات اللسانية المعاصرة هذا النمط من البحوث في خصائص الألسن الإنسانية على غرار اللسانيات العامة في بحثها المتواصل عن الكليات اللسانية من حيث هي قضايا مشتركة بين الألسن التي تبدو في ظاهرها مختلفة اختلافا شديدا، وهذا الدأب اتخذته اللسانيات التوليدية والتحويلية أيضا في سعيها إلى وضع نظرية نحوية كلية تجلت في مفهوم " النحو الكلي " الذي هو في الأساس نحو أنموذجي كفيل بأن تندرج ضمنه جميع الأنحاء العالمية من دون استثناء، ولهذا البعد اللساني الكلي سند فلسفي خالص على اعتبار أن من مشمولات فلسفة اللغة بمعناها الحديث البحث في القواسم المشتركة بين الألسن البشرية.

إن نظرة ابن رشد الحفيد إلى قضايا النحو – وإن كان مبدؤها نحوا عربيا بحتا – فهي نظرة تروم تحقيق الأبعاد المشتركة التي تفضي إلى صياغة القوانين الكلية، وقد بدا ذلك بارزا وواضحا في تكريره لعبارة " **ولذلك كانت مشتركة بجميع الألسن** " (ابن رشد، 2010، ص103) وقوله أيضا : " **إما لسان العرب وإما غيره من الألسنة** " (ابن رشد، 2010، ص 98) زيادة على ذلك يتجلى البعد الكلي في النحو العربي لدى ابن رشد في التقاسيم الحاصرة للقضايا بدءا من تصنيف العلوم وصولا إلى تصنيف المسائل النحو ومباحثه.

من ذلك تقسيمه العلوم إلى قسمين بارزين هما: علوم مقصودة لأنفسها، وعلوم مقصودة لغيرها من العلوم، أي : علوم ممهدة في تعلم العلوم المقصودة ، (ابن رشد ، 2010، ص 99) ثم إن الغاية من هذا التقسيم تكمن في معرفة مرتبة علم النحو من سائر مراتب العلوم الأخرى ، هل هو من القسم الأول منها أم من القسم الثاني منها ؟ و لمّا كان النحو آلة يتوسل بها إلى معرفة علوم أخرى ، كان يكون من جملة علوم القسم الثاني فيصير تعلمه مقدما لما فيه من المنفعة المباشرة للطالب كي يدرك مقاصد العلوم التي هي من القسم الأول، نعني العلوم المقصودة لأنفسها،

فالتقاسيم هنا هي تقاسيم حاصرة ، وخاضعة للمقتضيات العقلية من حيث هي متفقة مع البنيات العقلية التي يتمتع بها النوع الإنساني، وخير ما يؤكد ذلك لدى ابن رشد في كتابه الضروري هو نقده لمناهج النحاة في عرضهم للمادة النحوية ، أو بعبارة ثانية : لكأنّ ابن رشد الحفيد يعيب النحاة القدامى في منهجهم التعليمي خاصة، والمشارقة منهم تحديدا ؛لأنهم في نظره كانوا يفتقرون إلى النظرة المنطقية التي تتجلى في التقاسيم التي كانوا سائرين عليها في مؤلفاتهم. فهم لم يتخذوا المسائل النحوية الكلية مبدءا لهم في ذلك ،(ابن رشد، 2010، ص 58. 102 .153)بل عكسوا الطريق وجعلوا المسائل الجزئية مبدءا، وهذا بالنسبة لابن رشد الحفيد لا يستقيم مع ما تقتضيه العملية التعليمية وكذا المنهج العلمي لديه؛ يقول مبينا ذلك : " **إنما كان الابتداء بهذه الأقاويل نافعا في الصنائع لأن ترتيب التعلم يقتضي أن يصير من الأعرف إلى الأخفى ، والكليات أعرف عندنا وأسهل من الجزئيات ، ولذلك إذا وجدنا في أمرنا قولا كليا حاصرا فرحنا به، ولم نعرّج على الجزئيات** ، (ابن رشد، 2010، ص 151) فكما هو بيّن من كلامه، أن مدار نفع الكليات كامن في سهولة المأخذ، وفي سهولة ضبط المتعلم والمنتهي لها، لقلة عددها وليسر حصرها، والمقدرة على استحضارها متى شاء إذا علم من بعد ذلك ما تتضمنه من قضايا ومسائل فرعية .

ولنا أن نعرض التقاسيم الحاصرة التي قدمها في كتاب الضروري على هذه الصورة : ينقسم العلم عموما إلى قسمين بارزين هما :

1/ علم مقصود لذاته، و هو العلم الشرعي خاصة وينقسم بدوره إلى قسمين : القرآن والسنة.

2/ علم مقصود لغيره، منها النحو، والنحو بدوره ينقسم إلى قسمين :

- نحو الألفاظ .
- و نحو المعاني .

وبين القسمين علاقة تلاحم تتجلى في النظم ومن ثم التكلم على عادة أهل ذلك اللسان .

فكما هو بيّن، فإن تعيين كليات النحو العربي على وجه التحديد ،و غير العربي عموما يتطلب معرفة مراتب النحو ضمن مراتب سلسلة العلوم، وتحديد هذه المرتبة تفيد في معرفة وظيفة علم النحو من حيث هو علم لذاته أم علم لغيره بوصفه واسطة و آلة لابد منها في فهم وتعقل علوم أخرى، وهذا المنحى الذي يقدمه ابن رشد لا أثر له في مؤلفات النحاة المتقدمين ، اللهم عند من كان له حظوة في التفكير الفلسفي والمنطقي تحديدا؛ لأن التقاسيم الرشدية هنا هي في الأصل تقاسيم مبنية على عقل منطقي يميل ؛ بل يؤصل لمعرفة علمية واضحة، تنعكس في التقاسيم المنطقية المتطابقة مع القسمة العقلية .

وإذا كان هذا هكذا، فإن العلوم عنده كما هي عند كل فيلسوف ومنطقي كائنة في صورة مراتب ، ولكل مرتبة صلة بالتي تسبقها وبالتي تليها، وهكذا يندرج – كما أسلفنا القول - في نسق فلسفي في العلوم اتخذه

الفلاسفة سبيلا ناهجة لتحديد مرتبة كل علم قصد معرفة مضامينه ووظيفته فيما بعد، وكذا أهميته من حيث تعليمه وتعلّمه.

إن هذا التقسيم هو في حقيقة الأمر مدخل كلي لمعرفة الكليات في أي علم يراد دراسته ، لذا فإن معرفة مرتبة النحو ووظيفته في هذه التراتبية كفيلان بأن تسهلا الوقوف على كلياته، بدءا من إخضاع النحو إلى تقاسيم كلية هي الأخرى حاصرة لمسائله المتشعبة ، ومن هذا المنظور نرى ابن رشد يقسم النحو إلى قسمين ، وهذان القسمان يمثلان شكلا من أشكال الكليات التي يخضع لها أي نحو في أي لسان في أي جماعة لغوية، وهكذا يكون النحو في مفهوم ابن رشد على قسمين : الأول منهما هو نحو الألفاظ ، وثانيهما نحو المعاني (ابن رشد ، 2010 ، ص 99) والمتمعن في هذا التقسيم يرى أنه تقسيم حاصر ؛ لأنّ لكل لسان نحوا وفي كل نحو جانب شكلي و هو المعبر عنه بالألفاظ عند ابن رشد؛ بحيث يتضمن الصوت والصرف والتركيب، فهذه مستويات شكلية ، وهي أيضا أمر كلي نجده في الألسن والأنحاء البشرية جميعا، وهي مستويات تحتاج إلى أمر آخر يعطيها دلالة محددة، إنها القسم الثاني الذي اصطلح عليه ابن رشد بنحو المعاني ، وهو المحتوى في كل شكل نحوي .

ومن المعلوم بداهة أن الشكل يرتبط بالمعنى، والمعنى يرتبط بالشكل ؛ لذا فالعلاقة بينهما علاقة تكامل مما يفضي إلى مفهوم جوهري له خطره في الفكر اللساني العربي عامة، ألا و هو مفهوم النظم ، والنظم ليس يقتصر على اللسان العربي وحسب، بل لكل لسان نظم يخصه، فيكون أمرا كليا بامتياز تتوافر عليه الألسن البشرية قاطبة.

وإذ قد عرَّف قِسميّ النحو من جهة الشكل والمعنى، باعتبارهما أمرا كليا، ينتقل يقسم ابن رشد أمرا آخر هو بالنظر إلى ما يعلوه جزئي ، وبالنظر إلى ما يدنوه يكون أمرا كليا خالصا تتسم به الألسن والأنحاء البشرية كلها، ولهذا التقسيم صلة مباشرة بالعلاقة التي تجمع الألفاظ المفردة بالألفاظ المركبة، مما يعني في جانب أخر ، أن ابن رشد يتتبع حصر الكليات النحوية عبر التقاسيم المنطقية من حيث هي شاملة وكلية ؛ لأن لكل نحو في أي لسان بشري شطر من اللغة يتعلق بالألفاظ من حيث هي كذلك في معزل عن التركيب ، وله شطر من اللغة ثان يتعلق بالألفاظ من حيث هي خاضعة لنسق تركيبي خاص ، فالتركيب مفهوم كلي ،أما هيئة التركيب وصورته فمفهوم خاص يتفرد به كل لسان .

وإذا كان هذا هكذا، فإن ما يقرره ابن رشد في هذا التقسيم هو أن أي لغة لها نحو يخصها تشترك مع لغات أخرى عالمية في قضية التركيب والإفراد ، و بهذا المعنى يكون ذلك على هذه الصورة :

- علاقة الألفاظ المفردة بالألفاظ المركبة تكون في :

1/ أشكال الألفاظ التي منها انبنت.

2/ أشكال الألفاظ المركبة.

3/ أشكال الألفاظ الزائدة على أشكال بنيتها.

ولكل قسم قسم من هذه الأقسام ما يبينه من الأمثلة، ففي أشكال الألفاظ التي منها انبنت ينحصر المفرد والمثنى والجمع و المذكر والمؤنث، (ابن رشد ، 2010، ص 99) وكما هو بيّن من ذلك فإنها قضايا لسانية ونحوية لا يخلو منها أي لسان طبيعي، وذلك أن الألسن البشرية كلها على الرغم من افتراقها واختلافها في العديد من الأوجه والخصائص و على الرغم من تعددها وبعدها عن بعضها جغرافيا، فإنها في نهاية المطاف هي خاضعة لناموس عام وكلي يردها إلى أصل واحد مشترك يجمع بينها، وهذا الناموس أو القانون العام هو ما يعبَّر عنه" بالكليات " ففي كل لسان بشري نلفي المقولات النحوية : المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، وهكذا يتحصل لدى ابن رشد أن الألسن البشرية كلها تشترك في كلية لسانية / نحوية هي أشكال الألفاظ التي منها انبنت.

وما قيل عن القسم الأول يقال عن القسمين الثاني والثالث ؛ لأن أشكال الألفاظ المركبة هي عند ابن رشد مجموع الأقوال الخبرية (ابن رشد ، 2010، ص98) أو الجمل الخبرية المركبة ، وما يتعلق بها، فيدخل في هذه الكلية قضايا التركيب من تقديم وتأخير وحذف وزيادة (ابن رشد، 2010، ص 98 .99) وإذا كان هذا هكذا فإننا نلحظ بأن ما بيّنه ابن رشد من هذا القسم هو أيضا كلية لسانية/ نحوية تحظى بها سائر الألسن البشرية ، لأنها كلها تتوافر على مقولة التركيب ، وكلها تتوافر على خاصية التقديم والتأخير والحذف والزيادة كذلك؛ ولكن هذا ضمن نظرة كلية لا تراعي التفاصيل الجزئية التي تخص كل لسان على انفراد.

وأما القسم الثالث من أقسام علاقة الألفاظ المفردة بالألفاظ المركبة، فإنه يتحدد عنده في أشكال الألفاظ الزائدة على أشكال بنيتها (ابن رشد، 2010، ص 98 .99) ويندرج في هذا القسم الكلي أيضا أقسام ثلاثة جزئية باعتبارها منضوية فيه، وهي كلية من حيث هي متوافرة في الألسن والأنحاء الإنسانية ، وهذه الأقسام الجزئية هي الأخرى عند تأملها نلفيها خاضعة لمقتضى القسمة العقلية ؛ لأن أي كلمة في أي لغة وفي أي نحو بشري تصيبها تغيرات إما في مستهلها وإما في جوفها و إما في أخرها (ابن رشد ،2010، ص 98 .99) وهكذا تعرف أشكال الألفاظ بوصفها كلية لسانية ونحوية مشتركة بغض النظر عن هيآت هذه التغيرات التي تختلف من نحو إلى نحو أخر.

والحق إن ابن رشد لم يكتف بهذه التقاسيم المذكورة ؛ بل نلفيه يخضع مسائل النحو ومقولاته إلى تقاسيم هي الأخرى منطقية وعقلية، تؤدي إلى ضبط الكليات النحوية وحصرها، إذ يتتبع ذلك عبر التقاسيم الدالة على توجهه الفلسفي والمنطقي المشائيينِ قصد تحقيق ثمرة علمية وتعليمية بأيسر الطرق والمسالك والمناهج العلمية، فضلا عن ذلك عندما نمعن النظر في هذا المنحى الكلي الذي سار عليه ابن رشد يتجلى لنا بوضوح بأن المبدأ عنده وإن كان النحو العربي إلا أنه لم يكن مقتصرا عليه ؛وإنما جعله منطلقا ليبرهن على أن النحو العربي يتضمن منطقا وكليات نحوية نجدها في أي لسان بشري ، مما يدل

على أن النظرة المرادة هنا هي النظرة الشمولية التي تتقصد بناء نسق شمولي في أيّ موضوع من موضوعات المعرفة الإنسانية . ولقد بيّن ابن رشد ذلك غاية البيان في عبارة وجيزة ولكنها بليغة وكاشفة عن دلالات جمة لهذا النمط من التفكير الكلي؛ قال في ذلك " **والكليات أعرف عندنا و أسهل من الجزئيات ، ولذلك إذا وجدنا في أمرنا قولا كليا حاضرا فرحنا به**" (ابن رشد ، 2010، ص 151) فدلالة الفرحة هنا كفيلة بأن تكشف عن قصد فلسفي ومنطقي يفضيان إلى صياغة الكليات المشتركة بين جميع الألسن والأنحاء العالمية.

إن لهذه النظرة الكلية اليوم حضور قوي جدا في الساحة اللسانية بمسمى اللسانيات الكلية تارة، والنحو الكلي تارة أخرى، على أن لا يؤخذ مفهوم الكليات الرشدية في كتاب الضروري على إطلاقه؛ بحيث تجعلنا نراها متطابقة مع ما تدعو إليه اللسانيات الغربية المعاصرة ممثلة في اللسانيات العامة والنحو التوليدي والتحويلي في صورته الكلية؛ لأن الكليات الرشدية – وإن كانت تتفق في بعض الجوانب مع الكليات اللسانية والنحوية المعاصرة - فإن لها بعض الخصوصيات التي تصيّرها متميزة بحسب ما يمليه عليه عصره وثقافته ولغته أيضا، ذلك أن الكليات التي يقصدها ابن رشد في الضروري، هي ذات صبغة فلسفية خالصة قبل أن تكون كليات نحوية، ويظهر هذا من التحديد الذي يعطيه لها، فهو تحديد الفلاسفة الذين كانوا قبله، وعليه فهو تحديد يجعل من الكليات مرادفة للقوانين ومن ثم فهي قواعد كلية ،(ابن رشد ، 2010،ص 58 . 151) تسهّل على المتعلم إتقان تلك الصناعة وضبطها، ومن هنا لابد من التفريق بين القوانين ذات البعد الكلي من حيث هي قواعد تعلّم ، والكليات التي تدعو إليها اللسانيات المعاصرة، ذلك أن ما يجمع بين كليات ابن رشد وكليات اللسانيات المعاصرة هو معنى الاشتراك الحاصل بين الألسن والأنحاء العالمية ، بيد أن نظرة اللسانيات المعاصرة خاصة التوليدية والتحويلية إلى الكليات تختلف عمّا قصد إليه ابن رشد خاصة في جانب التقسيم؛ لأن اللسانيين المعاصرين يقسمون الكليات إلى كليات لسانية وأخرى كليات لغوية، ويخضعونها إلى تقسيم أخر هو كليات متصورية وكليات هيكلية (ربير مارتن،2007، ص 89 .112)

ومما هو جدير بالاهتمام في كتاب الضروري، بالإضافة إلى المنهج والمصطلح والتقاسيم، نظرة ابن رشد الحفيد الكلية والشمولية إلى قضايا النحو ومسائله من حيث هي قضايا لا تقتصر على اللسان العربي، بل تتعداه إلى سائر الألسن البشرية باعتبارها كليات نحوية أو إن شئنا القول : من حيث هي ثوابت نحوية تتوافر عليها الأنحاء العالمية كلها، وهذا ما يجعلنا نصنف صنيع ابن رشد في هذا الكتاب من قبيل ما يصطلح عليه اليوم في حقل فلسفة اللغة المعاصرة بالنحو الفلسفي أو النحو الصوري(المنطقي) بوصفه البداية العربية الجادة لهذا النوع من البحوث والدراسات اللسانية والنحوية تحديدا في الغرب الإسلامي .

خلاصة القول هي أن ابن رشد كانت له جهود جبارة في ميدان النحو كما هو مقرر في كتابه الفريد " الضروري في صناعة كليات النحو" من وجهة نظر خاصة به وبمن اشتغل بالتفلسف في الظواهر اللغوية عموما ،التي تجلت في العديد من المفاهيم والتحديدات والمصطلحات والتقاسيم و كذا في المنهج العلمي الذي سلكه، إنها جهود لا تقل أهمية عن جهوده الأخرى في حقول معرفية متنوعة مثل الفلسفة والمنطق والسياسة والفقه وأصول الفقه والفلك والطب و علم الكلام، والمتتبع لأعمال ابن رشد في طريقته ومنهجه العلمي وفي تقاسيمه لمقولات ومباحث العلوم التي كان مشاركا فيها يبرز له بوضوح بأن الفيلسوف كان يحمل مشروعا علميا وفلسفيا متميزا وبنظرة كلية شمولية لا تستثني علما من العلوم ، بل العلوم كلها تخدم بعضها بعضا في إطار كلي وشمولي وعلائقي ابتداء من كونها علوما مقصودة لذاتها وعلوما ليست مقصودة لذاتها ، لأجل هذا تعد جهود ابن رشد الحفيد في علم النحو خاصة مهمة جدا إن لم نقل هي جهود غاية في الخطورة إذا ما أخذت مأخذ الجد في ظل ما طرحته وتطرحه مختلف التصورات والنظريات اللسانية الغربية الحديثة والمعاصرة في صورتها العامة والكلية خاصة إذا استحضر البعد المشائي الأرسطي الذي يمثل الموجه والمحرك الأساسي لفلسفة ابن رشد كلها.

المصادر والمراجع :

- **الزجاجي، (1996) علل النحو ، تحقيق مازن المبارك ، دار النفائس، بيروت لبنان .**
- **ابن جني ، (2007) الخصائص ، تحقيق، شريدة شربيني، دار الحديث مصر ،**
- **القرافي ،(2013) الخصائص، تحقيق طه محسن عبد الرحمن و كيان أحمد حازم يحي، المدار الإسلامي بيروت لبنان ،**
- **ابن رشد (2010) الضروري في صناعة النحو ، تحقيق ودراسة منصور علي عبد السميع، دار الصحوة ، مصر**
- **روبير مارتن (2007) مدخل لفهم اللسانيات ، ترجمة عبد القادر المهيري، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان ،**